

١٣ - تاريخ العرب الأدبي

للاستاذ رينولد نيكلسون

ترجمته محمد منى ميسى

إن تاريخ البدو أيام الجاهلية لا يخرج عن كونه سجلاً لحروبهم ، أو بالحري هو ذكر عصابات كانت تغير على القوافل بين آن وآخر بغية السلب والنهب . ولم يكن ثمة حاجة تدعو إلى الاستغاثة ، بل كان كل فريق منهم يفخر بنسبه ، ويصب على الآخر وابلاً هطلاً من الأهاجي المقذعة ، وتؤسر الإبل والنساء ، كما كانت المناوشات العدة تقوم بينهم ولكن القليل منها يؤدي إلى نشوب حرب ، وكان ذلك نوعاً من الحروب - هو مربية أتاح فرصة طيبة للقيام بأعمال تنطوي على البطولة . ويقول ثوربك بصدد هذا الشأن : « وإذا شئنا أن نكتب التاريخ الواقعي لمثل هذه المنازعات البدوية وجدنا ذلك أقرب إلى المستحيل . أما عن المصادر المعاصرة له التي تستأهل عناية الباحث فليس لدينا سوى القصائد والمقطعات الشعرية التي ظلت محفوظة ، وطبقاً لما يذكره السيوطي كان العرب يطلبون من أي بدوي يقص حادثة تاريخية أن يقرنها ببعض أبيات تتعلق بها . والحقيقة أن كل مثل هذه الأفاصيص التي ضغطت على مرّ العصور حتى وصلت إلينا قد تبلورت حول القصائد . ومما يؤسف له أنها قلما كانت صحيحة ، ويتضح في أغلب الأحيان أن الأفاصيص قد اخترعت اختراعاً وهيئت حتى توافق موضوع الأشعار (١) ، ورغمما من أن معظم ما يتعلق بأيام العرب خرافي إلى حد بعيد إلا أنه يصف في أمانة الخصومات القبلية التي كانت تنشب بينهم والطريق الذي كانوا يسلكونه فيها ، وقصة (٢) حرب البسوس التالية - وهي أشهر حرب في الجاهلية كافية في تصوير هذا الجانب المهم من الحياة البدوية ، وجنوب أرض نجد المرتفعة يقترب المسافر بالتدريج من

(١) Thorbecke : ' Antarah, ein Vorislamischer Dichter, P. 14.

(٢) لم نشأ أن نكتب هذه القصة لصهرتها عند قراء العربية ويمكن القارى . مراجعة ما ذكره الثبريري في شرحه للحصاة (طبعة Freytag) ص ٢٢٠ - ٢٢٣ ، ص ٢٥١ - ٢٥٣ كذلك راجع أيضاً Delectus لذلك ص ٣٩ وما يليها .

البحر الأحمر الذي تفصله عن الجبال المحاذية له أرض منخفضة ضيقة يقال لها نهامة ، أما الحجاز فهوتلك اهضبة الوعرة المسلك التي تقوم بين نجد والشام . وهذا هو الشعب الذي كانت تسلكه في الأزمنة القديمة قوافل السبئين محملة بالبضائع الغالية الثمنة ، ميمعة شطر موأى البحر الأبيض المتوسط ؛ ومنذ عدة قرون قبل الميلاد نشأت محطتان تجاريتان عظيمتان هما مكرب (مكة فيما بعد) وفي شمالها يثرب (اسم المدينة قبل الإسلام) ولسنا نعرف شيئاً عن سكانهما الأولين أو تاريخهم إلا ما تفيض به روايات الكتاب المسلمين التي تطوى القرون القهقري حتى تصل إلى ذكر أيام آدم وإبراهيم ؛ ولقد كانت مكة مهد الإسلام هذا الدين الذي كان - كما يذكر محمد (ص) - ملة إبراهيم ، ولكن جاء من بعده خلف أفسدوه إلى أن أرسله الله ليظهر من شوائبه مبشراً به من جديد ، ولذلك قيل إن دين أهل مكة قبل ظهور الإسلام بزمان كبير كان هو في ذاته الإسلام . وإن مدينة الإسلام المقدسة لتظهر منذ آلاف السنين وهي مغمورة بفيض هذا السناء ، ويقال إن العرب حينذاك كانوا جميعاً يعبدون « الله » ثم تفرقوا بعد ذلك وزلوا بعبادة الأوثان ولكنهم عادوا كحجاج إلى مزار خصص أولاً للكائن الأعظم الفرد ، بيد أن المطاف قد استحال إلى حرم لآلهة القبائل المختلفة ، وهذه النظرية من أول ما جاء به الإسلام ، وسأقص - جهد ما أمكنني الاختصار - النقاط البارزة القوية .

في وادي مكة - وهي البيت الأول لهذا الفريق من الجنس العربي الذي يدعى أنه من ذرية اسماعيل بن إبراهيم من زوجته هاجر - يقوم بناء مكعب الشكل على غير نظام ، وفي مساحة صغيرة ذلك هو الكعبة ، وتنسب قصة بنائها إلى آدم الذي شاهدها بأمر سماوى ، وحينما طغى الطوفان وطوى في لجته كل ما على الأرض رفعت الكعبة إلى السماء حتى إذا غاض الماء أعاد بناءها في مكانها السابق اسماعيل وإبراهيم . وبينما كانا منهمدين في عملهما هذا جاءهما جبريل بالحجر الأسود المعروف وموضعه الجنوب الشرقى من البناء ، وأوصاهما بأداء فريضة الحج . ولما انتهى البناء انتصب إبراهيم واقفاً على صخرة يطلق عليها لمتأخرون « مقام إبراهيم » واستدار إلى الجهات الأربع ثم

ولى وجهه شطر السماء وصاح ، أبها الناس : لقد فرض عليكم الحج إلى البيت العتيق فاستمعوا لأهلهم . وحيث أن أجابته من كل الجهات أصوات هاتفة : ليك اللهم ليك .

وكثر نسل إسماعيل حتى ضاق بهم الوادى فساح عدد جم منهم في فجاج الأرض ، وخلفتهم قبيلة جرهم كأُسرة حاكمة للبقعة المقدسة ، ولقد غرقت تلك القبيلة في الكبرياء والآثام حتى حلت نقمة الله عليها ، وكثيرا ما يشار إلى انفجار سد مأرب الذى جعل الكثير من عشائر اليمن تشد رحالها ناحية الشمال ، ولقد استقر المهاجرون في الحجاز واستأصلوا غالبية الجرهميين ثم واصلوا السير إلى القبيلة واحدة تلك هى قبيلة خزاعة التى استقرت في جوار مكة تحت امرأة زعيمها الحى ، واشتهر عمرو ابن لحي بين العرب بثرائه وكرمه ، ويقول ابن هشام ، حدثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مأرب من أرض البلقاء وبها يومئذ العالقي رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم ماهذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له هذه أصنام نعبدها نستمظرها فتمطرنا ونستنصرها فتصيرنا ، فقال لهم : أفلا تعطونى منها صنما فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنما يقال له هبل . فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ^(١) . وقلده العرب في ذلك بغاوا بأوثانهم ونصبوها حول المعبد ، وبذلك تم انتصار الوثنية وعم انتشارها ، حتى لقيت كل هاتيك الأوثان مصرعا حينما دخل محمد (ص) مكة على رأس جيش من المسلمين في السنة الثامنة للهجرة (= ٦٢٩ م)

أما أشهر القبائل التى نسلت من إسماعيل من عدنان واستقرت في الحجاز فهى هذيل وكنانة وقريش ، وينبغى أن نجعل اسم هذه القبيلة الأخيرة على الدوام نصب أعيننا ، إذ نجدها قبل ظهور محمد بقرن صاحبة السيادة في مكة . وشيوخها حراس الكعبة ، وتلك مرتبة قد حرصوا عليها لما تدره من ثراء عظيم . وسبب صعودهم إلى معارج القوة أنه كان لكلاب بن مرة ولدان : هما زهرة وزيد وكان الثانى طفلا حينما اغتصب الموت أباه ، وتزوجت أمه فاطمة من رجل يدعى ربيعة فاحتلمها إلى بلاده ، وشب زيد بعيدا عن وطنه الأول ومن ثم سمي 'قصيّا' ولما بلغ مبلغ

الرجال وعرف موطنه أتى مكة حيث كانت السيادة فيها معقودة على هام بن خزاعة ونحت زعامته شيخهم حليل بن حبشية ، فكانت شؤون الكعبة بعيدة عن قريش وهى من سلالة إسماعيل ، ثم إن قصي بن كلاب خطب إلى حليل بنته 'حبي' فرغب فيه حليل ، وكان هدف قصي أن يخلف حليلا في هذه المكانة الرفيعة ، بيد أن هذا سلم مفاتيح الكعبة ساعة وفاته إلى أحد ذوى قريباه واسمه أبو غبشان ، وكان كثير الشرب فاحتال قصي عليه وأسكره حتى باعه مفاتيحها لقاء زق من النبيذ . ولذا يقال في الأمثال : أضل من غبشان ، ولم ترض خزاعة بهذا الأمر فامتشقت الحسام ، ولكن قصيّا ظهر عليها . ومن ثم غدا المهيمن على شؤون البلدة وحرمها القدسي ، وكانت باكورة أعماله أن جمع قريشا وكانت قد تفرقت في سهول مكة فسمته قريش 'المجتمع' ، وبني دار الندوة حيث يجتمع شيوخ العشائر والقبائل فيها متبادلين الرأى والمشورة فيما يعرض أمامهم من الأمور ، ولما مات قصي احتفظت قريش بهذا الأثر المقدس وظل في بيتها .

وربما كان موت قصي قد حدث في النصف الثانى من القرن الخامس لليلاد ، ولقد ولد الرسول بعد ذلك بقرن أعنى عام ٥٧٠ أو ٥٧١ م وهنا ينبغى الإشارة إلى أن تاريخ مكة طوال هذه الفترة كان سجلا لمشاغبات تافهة قل أن تخللها حادثة ذات أهمية ، كما أننا نجد الصدارة لأسلاف النبي طوال هذه المدة . وتظهر المنافسة التاريخية لليتين الأموى والعباسى في شخص مؤسسيهما : أمية وهاشم ؛ وفي أثناء ذلك كان نفوذ قريش ثابت الساعى ، واسع الانتشار ، وغدت الكعبة دار ندوتهم الأهلية الكبرى ، كما أن وفود الحجاج الذين أقبلوا من مختلف أصقاع بلاد العرب لم يعملوا خصب في رفع العباء عن فريش بل عاونوها في تثبيت مركزها التجارى ، ولقد قصصنا عليك من قبل ، كيف عزم أبرهة - والى الحبشة على اليمن - على النيل من مكة لما ارتكبه أحد القرشيين من تدنيس كنيسة صنعاء ، وقد يصح أن يكون هذا سببا يتخذة أبرهة ، بيد أنه كان يريد بلا شك الاستيلاء على مكة ومفاتيح تجارتها .

ويزعم المؤرخون المسلمون أن هذه الحادثة ^(١) العجيبة وقعت عام ميلاد الرسول في السنة المعروفة بعام الفيل حوالى ٥٧٠ م ،

(١) راجع ما كتبه الطبري عن حملة أبرهة ج ١ ص ١٢٦ ، ١٢٩ - ١٣٠ ، وفى

بالخروج من مكة والترحل في شرف الجبال والشعاب تخوفا عليهم من معزة الجيش ، ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش فقال عبد المطلب :

لا همَّ إنَّ العبدَ يذَّ نَحْرَ حِلْمَةٍ حَلَالَةٍ (١)
لا يفلنَّ صليهم ومخالم أبدا محالك
ولئن فعلت فربما أولى فأمر ما بدا لك
ولئن فعلت فإنة أمر تتم به فعالك (٢)

فلما أصبح أبرهة نيا لدخول مكة فأقبل نفيل بن حبيب الخثعمي حتى قام إلى جانب فيله وقال « ابرك محمود وارجع راشدا من حيث جئت فانك في بلد الله الحرام ، ثم أرسل أذنه فبرك الفيل فوجهوه لمكة فأبى ثم للشام فهرول ، ولشرق واليمن ففعل مثل هذا ، وأرسل الله عليها طيرا من البحر أمثال الخطاطيف (٣) يحمل كل طائر منها ثلاثة أحجار : حجر في منقاره وحجران في رجله لا تصيب أحدا منهم إلا هلك وقد أشير إلى هذا الحادث في السورة الخامسة بعد المائة المعروفة بسورة الفيل حيث يقول تعالى (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كُتُبَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَصَفٍ مَاءٍ كُؤَلٍ)

وإن الفصل الذي قام بتمثيله عبد المطلب في هذه القصة هو فصل ديني الغرض منه تبجيل شأن هذه المدينة المقدسة ، كما يتضح لنا منه ما كانت عليه أسرة النبي من سطوة وثناء قبل انبثاق نور الإسلام بنصف قرن ، « وحينئذ الله الحبشة عن مكة وأصحابهم بما أصابهم به من النعمة ، وعظمت العرب قريشا وقالوا أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم ، وقالوا في ذلك أشعارا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة وما رد عن قريش من كيدهم وينسب ابن اسحاق الآيات التالية إلى ابن الصلت بن ربيعة

(١) قرأها نيكسون حلاك (بكر الحار) ومن ثم ترجمها هكذا :

O God ! defend Thy neighbouring folk even as a man his gear defendeth !

(٢) الطبري ١ : ٩١٠

(٣) ويقول الطبري أيضا (ص ٩٤٠ س ٢) ان هذه الحجارة لا تصيب شيئا إلا هتنت ولا نظرت ذلك الموضع فكان ذلك أول ما كان الجدي والحبة وها نرى حقيقة تاريخية تلك هي انتشار الرض في جيش الحبشة

وبرهان على أن العرب قد هالهم مرأى هذه الحيوانات الضخمة أن واحدا أو أكثر قد صحب الحملة الحبشية ، وقد أوقع صدى استعداد أبرهة الحربى العرب في قلوب القبائل التي حاولت في مبدأ الأمر أن تصده ، معتبرة الدافع عن الكعبة واجبا مقدسا ، ولكن سرعان ما طارت نفوسهم شعاعا إذ رأوا أن لاقدرة لهم على ذلك ، وبعد أن هزم أبرهة ذا نفر الجيرى ، عسكر في جوار مكة دون أن يلقي مقاومة تذكر ، بعث إلى عبد المطلب جد النبي الرسالة التالية ، وكان عبد المطلب موثقا محترما من جميع القبائل « إني لم آت إلى سريكم ، إنما جئت لأهدم البيت ، فإن لم تعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم ، فرد عليه عبد المطلب : « والله ما نريد الحرب وما لنا بقلك من طاقة ، هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم ، وإن للبيت ربا سيمنعه ، وإذا لم يتأ فلاحول لنا ، وانطلق عبد المطلب إلى معسكر الاحباش مع حناطة رسول أبرهة فتوسط له أنيس (١) عند الملك وقال له « أيها الملك هذا سيد قريش يبابك يستأذن عليك وهو صاحب غير مكة يطعم الناس بالسهل والوحوش في رموس الجبال ، فأذن له أبرهة ، وكان عبد المطلب رجلا عظيما وسيما جسيما ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه أن يجلس تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلسه معه على سرير ملكه فنزل أبرهة عن سريره وجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ثم قال لترجمانه « قل له ما حاجتك ، فقال عبد المطلب : حاجتي إلى الملك أن يرد علي ما تبي بغير أصابها لي ، فقال أبرهة لترجمانه « قل له قد كنت أعجبتني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتني أتكلمني في ما تبي بغير قد أصبتك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ ، فقال عبد المطلب : « إني أنا رب الأبل وإن للبيت ربا سيمنعه ، قال « ما كان يمنع مني ، قال أنت وذاك ، اردد إلى ليلى ، (٢)

ويقال إن القبائل المقيمة حول مكة قد أوفدت رسلا من لديها ومن بينهم عبد المطلب فعرضوا على أبرهة تلك أموال تهامة على أن يرجع عنهم ولا يهدم البيت فأبى عليهم (٣) ولما استعداد عبد المطلب إليه انصرف إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم

(١) سانس فيل أبرهة وكان يسمى محمود

(٢) الطبري ج ١ ص ٩٣٨ - ٩٣٩

(٣) الطبري ١ : ٩٣٩

أما قبائل الصحراء فقد قوى اعتقادها في نفسها وأخذت موقف المهاجم بعد أن كانت من قبل تستظل بلواء امبراطورية آل ساسان وتخضع للأسرة الحاكمة في الحيرة، وأخذت تلك القبائل تظهر الموجدة والاحتقار بهذا الشيخ الذي لم يعودوا يخشون بطشه بل وطئوه بأقدامهم .

انتهى الفصل الثاني ،

محمد حسن ميسرى

صدر أخيراً فلسفة اللذة والألم للاستاذ اسماعيل منظر عضو مجمع المصريات للثقافة العلمية

وهو بحث مستفيض في فلسفة أرسطو، الفيلسوف اليوناني
يتناول مجازات ارسطو وعلمية وفلسفة في فلسفة اللذة والألم مع لحن
إلى تاريخ المذهب وظهوره منذ نشأته إلى الآن، مشتملة
بمقارنات شتى، تدور حول اتحاد اللذة والرغبة أساساً للتأليف
وهذا الكتاب يتضمنه كل بحث كامل في هذا المذهب

الكبير ويدرس تاريخ المذاهب والفكر

بمناهج المذهب المثالي والمصالح

مذهب اللذة في المحسوسات ... ويقع

في مجلد ٣٠٠ صفحة منه القطع الكبير، وقد وزن مؤلفه
بمناهج المذهب، لاذهنية في مختلف المصالح تماماً لفائدة
البحوث التي يدور عليها المذهب أصلاً.

ثمنه ١٥ قرش بخلاف أجرة البريد

الناشر
مكتبة النهضة المصرية
شارع المديف رقم ١٥ بالقاهرة

الغنى وينسبها كثيرون غيره لامية بن أبي الصلت الشاعر المشهور
وكان حنيفياً ومعاصراً للنبى :

إن آيات ربنا ثاقبات لا يمارى فيهن إلا الكفور
خلق الليل والنهار فكل مستبين حسابه مقدور
ثم يجلو النهار رب رحيم بمهابة شعاعها منشور
حبس الفيل بالمخمس حتى ظل يحبو كأنه معفور
لأزماً حلقة الجرآن كما قططر من صخر ككب مجذور^(١)
حواله من ملوك كندة أبطال ملاويث في الحروب صقور
حلقوه ثم ابذعوا جميعاً كلهم عظم ساقه مكسور^(٢)
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور
ولقد أثارت غزوة الأحباش وهزيمتهم النعرة الوطنية في
نفوس عرب الحجاز، هذه المشاعر التي لا بد وأن يكون قد
شاركهم فيها إلى حد بعيد البدو عامة، وظهرت روح جديدة
خلال الحوادث التي تخللت الأربعين عاماً التي تلت هذا الحادث
في جميع نواحي شبه الجزيرة، وينبغي أن نتذكر دائماً أن أسرة
الخمسين في الحيرة قد انتهت بالنعمان الثالث الذي لقي مصرعه
على يد خسرو برويز (٦٠٢ - ٦٠٧ م) وكان قبل موته قد
استودع أسلحته وبعض حاجاته عند هانيء شيخ عسيرة بني بكر
وقد طلب خسرو هذه الودائع ولكن هانيء رفض تسليمها،
فأرسل هذا جيشاً فارسياً عرمرماً إلى ذي قار وهو مكان قرب
لكوفة يطفح بالمياه المتدفقة ولذلك كان ملجأ حصينا لبني بكر
ثام فصل الجفاف، ونشبت هناك معركة حامية الوطيس انتهت
هزيمة الفرس هزيمة منكراً^(٣) وكانت قوات العرب أكثر من
رات الفرس^(٤)، وقد عد العرب هذه الموقعة فاتحة عصر
ديد. من ذلك ما يروى أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) قال
بينما سمع بهذا وهذا أول يوم استراح فيه العرب من الفرس،

(١) الجرآن الغنى والككب اسم جبل، والمجذور : الحجر الذي جدر حتى

بلغ الأرض

(٢) ابذعوا تفرقوا (الامل)

(٣) راجع للطبرى ١٠١٦ - ١٠٢٧ وترجمة لذلك ٢١١ - ٢١٥

(٤) كان عدد العرب ثلاثة آلاف مقاتل والفرس الفين، وقد ذكر هذا في

قصيدة لكبير اسم بن الحارث بن عباد يمدح بها بني شيان .

عرباً ثلاثة ألف وركنية الفين أعجم من بني القديم